الفصل السابع

فلسفة التربية عند العرب

«طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله»

لقد قلنا مرارا أن محمدا ﷺ والإسلام والقرآن هم أساس العلم العربى والتربية العربية. ولاشك أن البراءة العظمى للتربية عند العرب كانت القرآن، وهو الذى أجبر الناس على تعلم القراءة فالكتابة فبقية العلوم. وقد ذكرنا أن النبى ﷺ سمح لأسرى قريش أن يفتدوا أنفسهم بتعليم أولاد المسلمين القراءة والخط. وزد على ذلك أنه أراد أن يتعلم بعض نسائه القراءة والكتابة. وبما أن أعمال النبى ﷺ وأقواله كانت المرجع فى الدين، حذا المسلمون حذوه من حيث التعليم. وأما ما يروى من أقواله فى شأن التربية والعلم فمنه ما يأتى:

- طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.
- اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد.
- اطلبوا العلم ولو فى الصين.
- العلماء ورثة الأنبياء.
- أفضل الناس المؤمن العالم.
- يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء.
- بدأ - سبحانه وتعالى - بنفسه وثنى بالملائكة وثلّث بأهل العلم.

ووردت الآية الآتية فى القرآن: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ... ۝٩﴾ [الزمر]. إذًا هذه هى البراءة قولا وفعلا. والآن يجدر بنا أن نبحث فلسفة التربية عند العرب وغرضهم منها.

الغرض من التربية:

إذا حللنا العوامل التى حدت العرب على طلب العلم وجدناها كثيرة. وقلما يقوم أى عمل من أعمال الإنسان على دافع واحد، إنما هو نتيجة عدة أغراض وعوامل ومحركات. وربما جاز لنا تحليل غرض التربية عند العرب إلى أربعة عوامل، وهى: العامل الدينى، والاجتماعى، والعقلى، والمادى. ولنبدأ بالعامل الأول وهو:

١- العامل الدينى:

لا يختلف اثنان فى أن الدين كان أساس التعليم عند المسلمين وعند الإفرنج. فكان غرض المسلمين من فتح المدارس دينيا، وهكذا كان غرض الإفرنج، تعلم الناس القراءة للوقوف على الكتب المقدسة، وكان المعلمون من رجال الدين. وكثير من العرب، رجالا ونساء، وقفوا أموالهم وأملاكهم على العلم لأجل نيل الأجر والتبرك. وقد مر بنا أن نظام الملك ومن جاء بعده فتحوا المدارس لمقاومة الشيعة ومؤازرة المذهب السنى. وعلى الجملة فقد كان الدين عاملا فعالا فى التربية عند العرب؛ ولهذا يجب على العلم وأهله فى هذا العصر الاعتراف بما للدين من الفضل عليهم.

هذا، ومع أن علاقة العلم بالدين أمر بديهى، فلا بأس من الاستشهاد بما قاله العرب فى هذا الصدد. «ينبغى أن ينوى المتعلم بطلب العلم رضا الله - تعالى - والآخرة، وإزالة الجهل من نفسه وعن سائر الجهال، وإحياء الدين وإبقاء الإسلام. فإن بقاء الإسلام بالعلم»(١). وإليك رأى جمعية إخوان الصفا التى قامت فى البصرة فى القرن العاشر للميلاد. «واعلم يا أخى أن كل علم وأدب لا يحمل صاحبه على طلب الآخرة ولا يعينه على الوصول إليها فهو وبال على صاحبه وحجة عليه يوم القيامة»(٢). وربما كان الغزالى من أهم من صرحوا بجعل التربية والعلم والتعليم وسائل لنشر الدين، وللآخرة وللفضيلة وللأخلاق. وجعل الغزالى

---

(١) تعليم المتعلم للزرنوجى ص١٠.

(٢) كتاب إخوان الصفا وخلان الوفا ص٧٤ [طبع ليدن].

لمسألة «النية» مقاما رفيعا فى فلسفته للتربية. وربما كان أفضل الطرق لفهم الغرض الدينى للتعليم العربى هو النظر فى أمر النية. وهاك آراء حجة الإسلام كما بينها فى كتابه المسمى بفاتحة العلوم:

الفصل الثانى من «فاتحة العلوم» فصل عنوانه «فى تصحيح النية فى طلب العلم». وفيه يقول: «إن تحصيل العلم عبادة، بل هو أفضل العبادات... قال ﷺ: لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتجاروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم. فمن فعل ذلك فهو فى النار... فيفهم من هذا أن من طلب العلم ليكتسب به مالا أو ينال به عند الخلق مرتبة أو جاها أو يستفيد به بين عشيرته وأقاربه عزًّا أو احتراما أو يحرس به ماله عن الأطماع وعن احتياج الظلمة أو ليخفف عن نفسه خراج السلطان أو ليدفع عن نفسه أذى الجيران وتكبر الأقران ومحاسدة الأقارب ومعاداة الأجانب. وجميع ما يجرى مجراه من الأغراض، سوى ابتغاء وجه الله - سبحانه تعالى - وامتثال أمره والتقرب منه وإحياء دينه وشريعة نبيه، فهو عاق بتعلمه متعرض لسخط الله - تعالى - منخرط فى سلك علماء السوء، ومتعرض للوعيد الوارد فى حقهم كما ورد فى حق بلعام بن باعورا.. أن من تعلم العلم لغرض من الأغراض سوى ابتغاء مرضاة الله - تعالى - فهو عاص ظالم»[1]. وإذا كان الغرض دينيا من التعلم فهو دينى أيضا من التعليم، إذ قال الغزالى: «كما يجب تصحيح النية على المتعلم يجب تصحيحها أيضا على المعلم، بل هو أهم لأن عبادة التعليم أشرف من عبادة التعلم. وأن ما انطبق على طلب العلم والتعلم فهو ينطبق على طلب التعليم. فإن علَّم المعلم لغرض غير مرضاة الله ونشر الدين والفضيلة فلا يجوز له أخذ مرتبه أو جرايته وسيكون تعليمه فاسدا... وأما القياس فهو أن التعلم والتعليم عبادة... ولا ينبغى أن يقصد به (المعلم) انتشار الصيت وقيام الجاه فى قلوب السلاطين وفى قلوب العوام، ولا أن يقصد به الاستخدام والاستشباع والتظاهر بكثرة الأنصار والأتباع ومباهاة الأقران بكثرة الأصحاب. ولا ينبغى أن يمن على تلامذته بتعليمه

(١) فاتحة العلوم ص٨.

حتى ينظر منهم ثوابا وجزاء وخدمة وموالاة ونصرة. فكل ذلك يفسد نية العبادة. . . وكذلك للمدرس أن يأخذ ما يكفيه ليفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرد لنشر العلم فيكون مقصوده النشر وثواب الآخرة. ويأخذ الرزق بلغة ميسرة للمقصود».

ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد الطويل لإثبات هذه القضية. وكفى أن نقول أن رهطا من كتاب العرب مثل الزرنوجى والكنانى وابن عبد البر النمرى القرطبى وابن خلدون وغيرهم صرحوا بما صرح به الغزالى، وهو أن الغرض الأساسى للعلم والتعليم والتعلم إن هو إلا الدين وإرضاء الله وطلب الآخرة. وقد قال صاحب المدخل «طلبنا العلم لغير الله، فأبى العلم أن يكون إلا لله»[1].

٢- العامل الاجتماعى:

قلنا أن الغرض الأسمى من التربية عند العرب كان الغرض الدينى، غير أنه إذا اكتفينا بهذا فنكون قد اكتفينا بنصف الحقيقة أو ثلاثة أرباعها؛ لأنه وإن كانت التربية العربية ذات هدف دينى، فقد دخل فيها أمر آخر ألا وهو العامل الاجتماعى. وإليك ما عندنا من الأدلة على هذا:

لا شك فى أن العلم يرفع مستوى صاحبه الاجتماعى. ولهذا السبب أقبل بعضهم على طلب العلم. وقد قال الشاعر:

وما العلم إلاَّ ما أفادك قوةً تنال به عزًّا وتنقاد للتقوى

ويروى عن عبد الملك بن مروان أنه قال لبنيه:

«يا بنى تعلموا العلم، فإن استغنيتم كان لكم جمالا وإن افتقرتم كان لكم مالا»[2]. وقال ابن المقفع: «اطلبوا العلم، فإن كنتم ملوكا برزتم وإن كنتم سوقة عشتم»[3]. ويدور على ألسنة العامة القول الآتى:

تعلم يا فتى تدعى أميرا ولا تك جاهلا ترعى حميرا

---

(١) كتاب المدخل ٢: ٣.

(٢) جامع بيان العلم - للنمرى ص٢٩.

(٣) جامع بيان العلم ص٣١.

ومن كلام الغـزالى نفسه يسـتنتج أن كثيـرين إنما طلبوا العلم وتعـاطوا مهنة التعليم لمطامـع اجتماعـية مثل «المبـاهاة»، و«طلب العز»، و«الجاه»، و«الاحـترام» وغيرها. ومما ورد فى رسائل إخـوان الصفا أن العلم يكسب صاحبه عـشر خصال محمودة وهى: الشرف والعز والغناء والقـوة والنبل والقرب والقدر والجود والحياء والمهابة.

وليس بخاف أن كـل هذه الخصال تنتـهى بصاحـبها إلى المقـام الاجتـماعى المكتسب من العلم. ولا جدال أيضا فى أن ذلك لمن أحسن حسنات العقلية العربية التى احترمت المـتعلم وجعلت له مقامـا اجتماعـيا رفيعا، وإن لم يكـن عريقا فى النسب. ويدخل هذا العامل الاجتماعى فى طـلب العلم عند العرب اليوم كما هو عند غيرهم من الأمم، فالطموح الاجتماعى إذًا كـان دافعا عظيما لكثير من العرب إلى طلب العلم والأدب والاشتغال بالمهن الحرة.

٣- التلذذ العقلى:

«كفى بلذة العلم والفقه والفهم داعيا وباعثا».

لا ينكر أحد تفوق الإغريق على كل الشعوب فى طلب العلم وحب الجمال والرياضة البدنيـة والتمثيل لنفسـها، لا لأغراض خارجية. فـقد أحب اليونان كل شىء جميل، ومـالوا إلى الاعتدال فى كل الأمور، وأرادوا الفـضيلة، لا للذهاب إلى الجنة ولا للكسب ولا لشىء آخـر بل حبـا بالجمـيل لنفسـه، والكامل لذاته، والفضيلة لمجرد كونها فضيلة. وأمـا العرب وغيرهم فقلما وصلوا إلى هذا المستوى لأنهم طلبوا العلم، كما أظهرنا، للثواب وللآخرة ولإرضاء الله - تعالى - ولنشر الدين وللمقـام الاجتـماعى. وما يقـال عن العرب من هذه الجهـة يقال عن بقـية الساميين أيضا. ومع أن الـعرب طلبوا العلم لأغراض خارجية. لم تخـل فلسفتهم من ذلك المبدأ الإغريقى النبـيل، ألا وهو طلب العلم لنفسه. والذى يدل على هذا كلمـات الشيخ برهان الدين الزرنوجـى «وكفى بلذة العلم والفـقه والفـهم داعيـا وباعثا»[1].

(١) تعليم المتعلم ص٢٧.

والجاحظ يروى قولا ربما يدل على هذا المعنى وهو «اقصد من أصناف العلم إلى ما هو أشهى لنفسك وأخف على قلبك، فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك وسهولته عليك». وأيضا «لست أطلب العلم طمعا فى بلوغ غايته والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله ولا يحسن بالعاقل إغفاله»(١).

ونذكر القارئ بالمناظرة التى قامت بين طالبين فى الأندلس إذ قال أحدهما للآخر: «لم أرج به (بالعلم) إلا علو القدر العلمى فى الدنيا والآخرة»(٢).

ومن خير ما قيل فى طلب العلم لنفسه، وللتلذذ العقلى فقط، كلام حاجى خليفة فى كشف الظنون حيث يقول: «فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب، بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق. على أن من تعلم علما للاحتراف، لم يات عالما إنما جاء شبيها بالعلماء. ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به. ولما بلغهم بناء المدارس ببغداد، وأقاموا مأتم العلم وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الذكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم ويعلمهم. وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل»(٣). فهذه هى الروح العلمية الحقة التى لا يشوبها شائبة من الطمع المالى أو الطموح الاجتماعى. هذه هى الروح العلمية التى تجلت عند علماء الإغريق مثل سقراط وأفلاطون، ومما يسر أنها لم تكن مفقودة عند العرب. ويجب لفت النظر إلى الكلمات الآتية التى نقلت من قول حاجى خليفة لإظهار ما نحن بصدده:

«من تعلم علما للاحتراف، لم يأت عالما، إنما جاء شبيها بالعلماء... العلوم ليس الغرض منها الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق... لما بلغهم بناء المدارس أقاموا مأتم العلم».

فقد قام بين العرب رجال قدروا العلم حق قدره، وطلبوه حبًّا به، وصرفوا السنين الطوال فى الوقوف عليه، ورحلوا وتحملوا المشاق فى سبيله. وكفاك شاهدا

(١) البيان والتبيين ٣: ١٨٥.
(٢) نفح الطيب ١: ٣٥٨.
(٣) كشف الظنون ١: ٥٣.

على ذلك ابن الخطيب التريزى الذى حمل الكتب على ظهره وقطع المسافة الطويلة من بلاد الفرس إلى المعرة كى يقف على حقيقة علمية يأخذها عن أبى العلاء المعرى.

٤- العامل المادى:

مهما اهتم الناس بالآخرة، ومهما اهتموا بأمور النفس فلا غنى لهم عن الاهتمام بأمور الدنيا وحاجات الجسد من مأكل ومشرب وملبس. ومع أن التربية العربية اصطبغت بصبغة دينية واجتماعية وأدبية، فقد شملت أيضا مقصدا آخر، وهو المقصد المادى. ولا مراء فى أن بعض من طلبوا العلم من العرب إنما طلبوه لتحصيل المعاش وجمع المال والإثراء. ولقد جئنا بقول عبد الملك بن مروان لبنيه، أنهم إذا افتقروا كان العلم لهم مالا. ونعيد أيضا رأى ابن المقفع فى أن العلم يُعيِّش صاحبه. وقد ذكر ابن خلدون فى المقدمة أن عددا كبيرا من الناس طلبوا العلم وانتظموا فى سلك التعليم للارتزاق. وكثرة نهى الغزالى الناس عن طلب العلم لغير الأغراض السماوية، تدل على أنهم اتخذوا العلم للمال والماديات.

وخلاصة القول أن فلسفة التربية عند العرب كانت فلسفة القرون الوسطى فى انهماكها بأمور الآخرة أولا واهتمامها بغيرها ثانيا. ولعل طلبة العلم لم يحللوا عقليتهم ولم يدرسوا أغراضهم من التربية، بل أقدموا على الدرس والمطالعة والرحلة لشوق فى نفوسهم. وربما طلب بعضهم العلم لغرض واحد من هذه الأغراض التى أتينا بها أو لجميعها.